

تفسير ابن كثير

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا بَدِئُوا بِهِمْ

(الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن ما بَدِئُوا بِهِمْ) قال ابن أبي طلحة ، عن ابن

عباس : فرح وقرّة عين . وقال عكرمة : نعم ما لهم . وقال الضحاك : غبطة لهم . وقال

إبراهيم النخعي : خير لهم . وقال قتادة : هي كلمة عربية يقول الرجل : " طوبى لك " ، أي

: أصبت خيرا . وقال في رواية : (طوبى لهم) حسنى لهم . (وحسن ما بَدِئُوا بِهِمْ) : مرجع

. وهذه الأقوال شيء واحد لا منافاة بينها . وقال سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس : (طوبى

لهم) قال : هي أرض الجنة بالحبشية . وقال سعيد بن مسجوح : طوبى اسم الجنة بالهندية .

وكذا روى السدي ، عن عكرمة : (طوبى لهم) أي : الجنة . وبه قال مجاهد . وقال

العوفي ، عن ابن عباس : لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال : (الذين آمنوا وعملوا

الصالحات طوبى لهم وحسن ما بَدِئُوا بِهِمْ) وذلك حين أعجبه . وقال ابن جرير : حدثنا ابن

حميد ، حدثنا يعقوب ، عن جعفر ، عن شهر بن حوشب قال : (طوبى) شجرة في

الجنة ، كل شجر الجنة منها ، أغصانها من وراء سور الجنة . وهكذا روي عن أبي هريرة ،

وابن عباس ، ومغيث بن سمي ، وأبي إسحاق السبيعي وغير واحد من السلف : أن طوبى
شجرة في الجنة ، في كل دار منها غصن منها . وذكر بعضهم أن الرحمن ، تبارك وتعالى ،
غرسها بيده من حبة لؤلؤة ، وأمرها أن تمتد ، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى ،
وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة ، من عسل وخمر وماء ولبن . وقد قال عبد الله بن
وهب : حدثنا عمرو بن الحارث ، أن دراجا أبا السمح حدثه ، عن أبي الهيثم ، عن أبي
سعيد الخدري - رضي الله عنه - [مرفوعا : " طوبى : شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ،
ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها " . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، سمعت
عبد الله بن لهيعة ، حدثنا دراج أبو السمح ، أن أبا الهيثم حدثه ، عن أبي سعيد الخدري
[عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أن رجلا قال : يا رسول الله ، طوبى لمن رآك
وآمن بك . قال : " طوبى لمن رآني وآمن بي ، ثم طوبى ، ثم طوبى ، ثم طوبى لمن آمن
بي ولم يرني " . قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : " شجرة في الجنة مسيرة مائة عام ، ثياب
أهل الجنة تخرج من أكمامها " . وروى البخاري ومسلم جميعا ، عن إسحاق بن راهويه ،
عن مغيرة المخزومي ، عن وهيب ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول

اللَّهُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا
يقطعها " قال : فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزرقى ، فقال : حدثني أبو سعيد الخدرى
، عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال : " إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد
المضمر السريع مائة عام ما يقطعها " . وفي صحيح البخارى ، من حديث يزيد بن زريع ، عن
سعيد ، عن قتادة ، عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وسلم - في قول الله : (وظل ممدود) [الواقعة : 30] قال : " في الجنة شجرة يسير
الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها " . وقال الإمام أحمد : حدثنا سريج ، حدثنا فليح ،
عن هلال بن علي ، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله
، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة اقرءوا إن
شئتم (وظل ممدود) أخرجاه في الصحيحين . وقال [الإمام] أحمد أيضا : حدثنا محمد
بن جعفر وحجاج ، قالا حدثنا شعبة ، سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبي هريرة ، عن
النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه قال : " إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين
- أو : مائة - سنة هي شجرة الخلد " . وقال محمد بن إسحاق ، عن يحيى بن عباد بن عبد

اللَّهُ بن الزبير ، عن أبيه ، عن أسماء بنت أبي بكر ، رضي الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذكر سدره المنتهى ، قال : " يسير في ظل الفن منها الراكب مائة سنة ، أو قال : يستظل في الفن منها مائة راكب ، فيها فراش الذهب ، كأن ثمرها القلال " . رواه الترمذي . وقال إسماعيل بن عياش ، عن سعيد بن يوسف ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلام الأسود قال : سمعت أبا أمامة الباهلي قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى ، فتفتح له أكمامها ، فيأخذ من أي ذلك شاء ، إن شاء أبيض ، وإن شاء أحمر ، وإن شاء أصفر ، وإن شاء أسود ، مثل شقائق النعمان ، وأرق وأحسن " . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن أشعث بن عبد الله ، عن شهر بن حوشب ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : طوبى شجرة في الجنة ، يقول الله لها : " تفتقي لعبدي عما شاء ; فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها ، وعن الإبل بأزمتها ، وعما شاء من الكسوة " . وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ، هاهنا أثرا غريبا عجيبا ، قال وهب ، رحمه الله : إن في الجنة شجرة يقال لها : " طوبى " ،

يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، زهرها رباط ، وورقها برود ، وقضبانها عنبر ،
وبطحاؤها ياقوت ، وترابها كافور ، ووحلها مسك ، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن
والعسل ، وهي مجلس لأهل الجنة ، فيناهم في مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم
يقودون نجبا مزومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصاييح حسنا ووبرها كخز المرعزى
من لينه ، عليها رحال ألواحها من ياقوت ، ودفوفها من ذهب ، وثيابها من سندس
وإستبرق ، فينيخونها ويقولون : إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال : فيركبونها ،
فهي أسرع من الطائر ، وأوطأ من الفراش ، نجيا من غير مهنة ، يسير الرجل إلى جنب
أخيه وهو يكلمه ويناجيه ، لا تصيب أذن راحلة منها أذن الأخرى ، ولا برك راحلة برك
الأخرى ، حتى إن شجرة لتتنحى عن طريقهم ، لئلا تفرق بين الرجل وأخيه . قال :
فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه ، فإذا رأوه قالوا :
اللهم ، أنت السلام ومنك السلام ، وحق لك الجلال والإكرام . قال : فيقول تعالى [عند
ذلك] أنا السلام ومني السلام ، وعليكم حقت رحمتي ومحبتي ، مرحبا بعبادي الذين
خشوني بغيب وأطاعوا أمري " . قال : فيقولون : ربنا لم نعبدك حق عبادتك ، ولم نقدرك

حق قدرك ، فأذن لنا في السجود قدامك قال : فيقول الله : " إنها ليست بدار نصب ولا عبادة ، ولكنها دار ملك ونعيم ، وإني قد رفعت عنكم نصب العبادة ، فسلوني ما شئتم ، فإن لكل رجل منكم أمنيته " فيسألونه ، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول : رب ، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها ، رب فأتني مثل كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا . فيقول الله تعالى : " لقد قصرت بك أمنتك ، ولقد سألت دون منزلتك ، هذا لك مني ، [وسأتحنفك بمنزلي] ؛ لأنه ليس في عطائي نكد ولا تصريد " . قال : ثم يقول : " اعرضوا على عبادي ما لم يبلغ أمانيتهم ، ولم يخطر لهم على بال " . قال :

فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيتهم التي في أنفسهم ، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة ، على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة ، على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة ، في كل قبة منها فرش من فرش الجنة متظاهرة ، في كل قبة منها جاريتان من الحور العين ، على كل جاريتة منهن ثوبان من ثياب الجنة ، وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما ولا ريح طيبة إلا قد عبقتا به ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة ، حتى يظن من يراها أنهما دون القبة ، يرى مخهما من فوق سوقهما ، كالسلك الأبيض في ياقوتة

حمراء ، يريان له من الفضل على صاحبه كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل ، ويرى
هو لهما مثل ذلك ، ويدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ويعتقانه به ، ويقولان له : والله ما
ظننا أن الله يخلق مثلك . ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفا في الجنة ، حتى
ينتهي بكل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له . وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده ،
عن وهب بن منبه ، وزاد : فانظروا إلى موهوب ريكم الذي وهب لكم ، فإذا هو بقباب
في الرفيق الأعلى ، وغرف مبنية من الدر والمرجان ، وأبوابها من ذهب ، وسررها من
ياقوت ، وفرشها من سندس وإستبرق ، ومنابرها من نور ، يفور من أبوابها وعراصها نور
مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدرّي في النهار المضيء ، وإذا بقصور شامخة في
أعلى عليين من الياقوت يزهر نورها ، فلولا أنه مسخر ، إذا لالتمع الأبصار ، فما كان من
تلك القصور من الياقوت [الأبيض ، فهو مفروش بالحرير الأبيض ، وما كان منها من
الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعقري الأحمر ، وما كان منها من الياقوت الأخضر] فهو
مفروش بالسندس الأخضر ، وما كان منها من الياقوت الأصفر ، فهو مفروش بالأرجوان
الأصفر منزّه بالزمرّد الأخضر ، والذهب الأحمر ، والفضة البيضاء ، قوائمها وأركانها من

الجوهر ، وشرفها قباب من لؤلؤ ، وبروجها غرف من المرجان . فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم ، قربت لهم برازين من ياقوت أبيض ، منفوخ فيها الروح ، تجنبها الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حكمة برزون من تلك البرازين ، ولجمها وأعتها من فضة بيضاء ، منظومة بالدر والياقوت ، سروجها سرر مرضونة ، مفروشة بالسندس والإستبرق . فانطلقت بهم تلك البرازين تزف بهم ببطن رياض الجنة . فلما انتهوا إلى منازلهم ، وجدوا الملائكة قعودا على منابر من نور ، ينتظرونهم ليزورهم ويصافحهم ويهنئوهم كرامة ربهم . فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تناول به عليهم وما سألوا وتمنوا ، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان ، [جنتان] ذواتا أفنان ، وجنتان مدهامتان ، وفيهما عينان نضاختان ، وفيهما من كل فاكهة زوجان ، وحوار مقصورات في الخيام ، فلما تبينوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم : هل وجدتم ما وعدتكم حقا ؟ قالوا : نعم وربنا . قال : هل رضيتم ثواب ربكم ؟ قالوا : ربنا رضينا فارض عنا قال : برضاي عنكم حلتم داري ، ونظرتم إلى وجهي ، وصافحتكم ملائكتي ، فهنيئا هنيئا لكم ، (عطاء غير مجذوذ) [هود : 108] ليس فيه تنغيص ولا تصريد . فعند ذلك قالوا : الحمد لله الذي

أذهب عنا الحزن ، وأدخلنا دار المقامة من فضله ، لا يمسننا فيها نصب ولا يمسننا فيها لغوب ، إن ربنا لغفور شكور. وهذا سياق غريب ، وأثر عجيب ولبعضه شواهد ، ففي الصحيحين : أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذي يكون آخر أهل الجنة دخولا الجنة :
" تمن " ، فيتمنى حتى إذا انتهت به الأمانى يقول الله تعالى : " تمن من كذا وتمن من كذا
" ، يذكره ، ثم يقول : " ذلك لك ، وعشرة أمثاله " . وفي صحيح مسلم ، عن أبي ذر عن
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الله ، عز وجل يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم
، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما
نقص ذلك من ملكي شيئا ، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر " الحديث بطوله
. وقال خالد بن معدان : إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى ، لها ضرع ، كلها ترضع صبيان
أهل الجنة ، وإن سقط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة ، يتقلب فيه حتى تقوم القيامة ،
فيبعث ابن أربعين سنة . رواه ابن أبي حاتم .